



الفصل السادس عم يتساءلون

تمهيد

كان بعض الفقهاء يرفض هذا السؤال : أرايت لو كان كذا ؟

لماذا ؟

لأن السؤال هنا ترف عقلي : من حيث إن المسؤول عنه لم يحدث بعد . .

فلنشغل أنفسنا بعالم الشهادة : بالواقع . . لا بالمتوقع .

لقد كان سؤال المؤمنين عن المفيد :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ... ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

أما اليهود :

فكانوا يسألون تعتا . . .

بعض السائلين

والمفروض فى السائل أن يكون مسترشدا :

ينشر الحق . . لمعرفة .

ويطلب الخير . . . للعمل به .

فإن لم يكن كذلك . . كان معاندا . .

منهج القرآن :

لم يقف القرآن الكريم فى مواجهة المعاندين . . يتلقى فقط شبهاتهم . . وإلا كانت آياته مجرد رد فعل . .

ولكنه يطرح من الأدلة والحقائق ما يكفى . . كاشفا هذا العناد حين لا ينتظر من المعاندين ردا . .

فى مثل قوله تعالى :

﴿ اَللّٰهُ خَيْرٌ اَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ [النمل : ٥٩] ؟

ومن دروس الدعو هنا :

الا يكتفى الداعية . . بمجرد الدفاع . .

لأن الدفاع يشكل راحة نفسية . . لأنه إعفاء للنفس من مسؤولية تحقيق الواجب .

إن عناد الكافر . . من نوع عناد الطفل الذى يريد بالعناد إثبات ذاته . .

والطريقة المثلى فى مواجهته هى :

التعامل معه بما يحبط هذا العناد .

ولكن . . كيف ؟؟

أيها الداعية :

كن سهل العبارة . . بلا تعمق . . مع من تعرف أنه يقصد الحق

وقد يكون سائلك ضعيفا . . ولكنه قد يضايقك بما يغلبك .

فكن كما يلي :

ابدأ بأقوى ما فى المسألة .. لتحقيق ما يلي :

تُذهب بها .. ما هو أضعف ..

لأنك لو بدأت بالضعيف .. احتجتَ إلى القوى ..

فذهب عنك رونق الحق .

ثم إنك لو قدّمت الضعيف .. استرذل الحاضرون كلامك .. فانعكس عليك ،

فضعف خاطرك عن الاسترسال .

وأخيرا :

إذا بدأت الخصم بالأقوى .. هابك :

فتأثر وضعف .

سؤال :

كلما باشرت الدعوة منفردا أحسست بضالة جهدى . شاعرا بحاجتى إلى غيرى

ليكون معى .. فهل يعد هذا نقصا فى دينى ؟

والجواب :

حسم القرآن الكريم هذه القضية بقوله عز وجل على لسان موسى عليه السلام :

﴿ وَاجْعَلْ لِّي زَوْجًا مِّنْ أَهْلِي . هَارُونَ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي . كَيْ

نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾

[طه : ٢٩ - ٣٦]

وفى موطن آخر يقول :

قال : ﴿ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يَكْذِبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ [القصص : ٣٤ ، ٣٥]

فقد أحس موسى عليه السلام - وهو رسول ومن أولى العزم - أحس بحاجته إلى

عون أخيه ليدعوا معا . فأعطاه الله تعالى ما أراد :

فالتعاون على الدعوة تكامل يجمع الله به كل خصائص الدعاة الذين يتعاونون بها على البر والتقوى .

من أين ينطلق الداعية؟؟

الجواب :

يبدأ أولاً بإصلاح نفسه :

وبهذا الإصلاح ينبت له جناحان يطير بهما، ليحط في الجنة . . وفي «طوبى» .

ولماذا كان جزاؤه «طوبى»؟:

١ - له هدف يتحرك في اتجاهه . .

٢ - يقيم في كيانه محكمة : تراقب . . بل تحاسب . . بل تعاقب !

٣ - يحمي إخوانه من الفضيحة . . ليتوبوا .

٤ - فهو إنذار مبكر :

كهذا الذي كان يعصى . . ثم يعود إلى البيت :

فتنطحه بقرته . وتعصاه زوجته .

٥ - يلاحق العيوب قبل أن تتراكم وتستعصى على العلاج .

ومما ينبغي تعليمه :

[ينبغي أن يورث العالم جلساءه قول :

لا أدري . .

فإن العالم إذا أخطأ «لا أدري» أصيبت مقاتله !] «مالك» .

ثم :

فلنعلم المدعو أولاً لأن جهله ينهض عذرا له كما قلنا آنفا :

يقول عز وجل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤]

يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٤]

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] .

ما معنى :

إذا ضيعت الأمانة .. فانتظر الساعة " لماذا ؟

لأن ضياع الأمانة معناه :

وضع الرجل غير المناسب .. فى الموضع الذى لم يؤهل له ..

ووضع الرجل المناسب .. فى المكان غير المناسب ..

بمعنى عدم احترام النسب .

وإذا حدث ذلك : فكيف يتسق البناء ليطاول السماء .. متحديا الفناء !!؟

إن اختلال النسب هكذا مؤذن بسقوط البناء : بقيام الساعة فى زمان لم يعد

الأحياء فيه جديرين بالحياة !

ما المقصود بقوله ﷺ :

« أحب حبيبك هونا ما .. وأبغض بغيضك هونا ما » ..

لماذا ؟

١ - عسى أن يكون بغيضك يوما .. فينشر أسرارك .

٢ - حبك شخصا إلى درجة التقديس .. سيجعل هفوته الصغيرة - على مستوى

التقديس - سيجعلها كبيرة .

٣ - إذن .. فالحب على مستوى التقديس .. يمكن أن يذوب .. لسبب تافه .

والقاعدة :

لا يكن حبك كلفا

ولا بغضك تلفا

وخير الأمور الوسط .

وصدق القائل :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

وهو معنى الاقتصاد فى « العواطف » حذر العواقب . .

وهو ما أشار إليه «أبو الأسود الدؤلى» :

بقوله :

وأحب إذا أحببت حبا مقاربا فإنك لاتدرى متى أنت نازع

وأبغض - إذا أبغضت غير مباين فإنك لا تدرى متى أنت راجع

أشعة على الطريق :

دروس مستفادة للدعاة من قصة أصحاب الكهف .

١ - العناية بالشباب .

٢ - قوة إيمان الداعية بالله .

٣ - الثبات على الحق .

٤ - أهمية الآيات الكونية .

٥ - ضرورة البعد عن المراء .

ماذا عن مقومات الحياة الروحية ؟

١ - الإيمان

٢ - التوحيد

٣ - الإيمان باليوم الآخر

خصائصها :

١ - الاستمرار .

٢ - الإحسان إلى الغير .

٣ - التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة .

ومنه دعاؤه ﷺ :

« اللهم أصلح لى دنياى التى فيها معاشى .

وأصلح لى آخرتى التى فيها معادى » .

سؤال :

صافحت «يهودية» فماذا ترى ؟

وقلت : ما أراه هو ما يراه الشرع الحكيم :

ومن حكمة هذا الشرع أن هذه اليهودية يجوز أن تكون لأخيك زوجة ، بمعنى :

أ - يحبها . . وتحبه . . ما دامت زوجه . . بل يوادها . .

ب - وأولاده منها . . أخوالهم من اليهود . .

وإذن فالخساسة الناشئة عن هذه المصافحة خطأ منك . وقد سبقك الإسلام إلى

إقرار ما هو أهم منها . . مما يمكن أن يكون لونا من الوفاق .

وقد تتسع به رفعة الإسلام .

سؤال :

أنا أغتاب واحدا من أهل الكتاب . . فما حكم الشرع فى ذلك ؟

أولا :

لا يجوز شتم المخالف فى الدين . . ولو كان وثنيا . .

وإذا كان ولا بد فالتعميم هو سبيلنا : مثل :

من فعل كذا فهو كذا . . دون أن نحدده بالاسم .

وثانيا : السنة تقول :

إن الرسول ﷺ . لم يكن فاحشا . ولا متفحشا :

بمعنى أن لسانه الشريف أنظف من أن يلوث بالكلمة النابية . .

وحتى لو تكلف مالها وعته نفسه . .

وإذن . . فالكلمة الطيبة أجدى . . وأقطع من البرهان . .

وإذا كانت وظيفة المسلم أن يحبب الآخرين فى الإسلام . . فالغيبة ليست السبيل

إلى تحقيق ذلك . . وإنما : الكلم الطيب والعمل الصالح . .

وثالثا :

يجوز أن يكون هذا الإنسان آخذاً طريقة ليكون مثلك على الهدى . . وأنت

مطالب بأن تكون عوناً له على ذلك . . بدل أن تكون مع الشيطان عليه .

ما معنى قوله تعالى :

أ - ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] .

ب - ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

والجواب : أن لين الجانب وخفض الجناح أليق فى التعامل مع المسلمين . . أما

غيرهم فنحن مطالبون بفرض احترامنا عليهم . . بلا ظلم لهم .

والتعبير بعلى ﴿ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعطى معنى «الشفقة» :

فالعزة هنا ليست استعلاء محضا . . وإنما هى الشفقة على من يستأهلونها

لأنهم :

يجاهدون فى سبيل الله . .

ما معنى قوله ﷺ :

« إن الله لا يمل حتى تملوا » .

المعنى : إنكم تعملون .. فيثيبكم الله تعالى ..
وما دمتم تعملون .. فالثواب موصول مضمون ..
ولا ينقطع هذا الثواب إلا إذا قطعتم العمل وإذن :
فاختاروا من الأعمال ما تداومون عليه . ليظل نهر الثواب جاريا إليكم .
عن قيمة العفة :
كان ﷺ إذا قلق بالليل .. خرجت به «حليمة» من الخيمة فإذا رأى النجوم ..
نام !

وكان ﷺ .. وهو وليد .. كان يبكي فقط ..
ومتى ؟؟ إذا تعرى ! ...
وتلك هي قيمة العفة : أمانة حضارتنا ..
أما اليوم فلم يعد للعفة مكان .. ولا مكانه :
فقد حكمت محكمة في باريس للممثلة «بريجيت باردو» ب ٦٠٠٠ دولار :
على إحدى المجلات هناك :
لماذا ؟

لأن المجلة أخذتها في صورة تسيء إلى كرامتها :
صورتها وهي عارية الجسد .. ولا تشريب على المجلة أن عرضت لحمها الطرى
على الهر الجائع .. فهناك أناس : لا يردون يد لامس ؟!
وإنما صدر الحكم لأن المجلة أبرزت جسدها وقد مزقته السكاكين أى في صورة
مشوهة ؟!

بمعنى أن الصورة لو كانت عارية .. لكن كما هي .. لربما كانت دفعت هي
الستة آلاف دولار .. وقل معنى : صدق الرافعى الذى قال : لو كنت قاضيا
وعرضت على قضية نحرش فنى بفتاة عارية .. لجلدتها هي .. لأنها كشفت لحمها

الطرى للهر الجائع !!

هكذا يتعامل الزملاء :

قال إبراهيم النخعي . لسليمان الأعمش . . . وقد أراد أن يماشيهِ :

إن الناس إذا رأونا معا قالوا :

أعور وأعمش . .

فقال سليمان :

ما عليك أن يأنموا . . ونؤجر !!

فقال له :

ما عليك أن يسلموا . . ونسلم !؟

قال الصحابي لزميله :

خذ جملي وجاهد . . على أن تتحمل أوزاري .

ومع أن الزميل مؤمن بأنه «لا تزر وازرة وزر أخرى» .

إلا أنه قبل القرض . . وأخذ الجمل . . لأن همته المتعلقة بالجنة أنسته هذه القاعدة . .

وهكذا كان الزملاء يتعاملون . .

وأين من هذا الأفق العالى من يتشاجرون اليوم بين الصحيح . . والأصح !

المؤمن . . والمنافق

شأن المؤمن : استصغار طاعته . واستعظام ذنبه . .

يفعل هذا مراغمة للشيطان الذى استحوذ على الكافر والمنافق .

أما المنافق :

فهو من مدرسة :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ [البقرة : ١١ ، ١٢]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ

وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة : ١٣] .

إنهم واثقون من أنفسهم ..

والحال إنهم :

أ - فقدوا الشعور [لا يشعرون]

ب - التفكير [لا يعلمون]

وماذا يبقى من وجود الإنسان بعد فقد الحس والعقل ؟ لم يبق إلا صورة اللحم والدم والعظم !!

ويبقى المؤمن هو الأقوى :

إن الصحراء للأسد ..

الأسد الذى يهجم من الأمام متحديا .

وليست الصحراء للعقرب ..

العقرب : التى تدب خفية وسط الظلام ..

وهكذا الرجل الحر :

إنه يعمل فى نقطة الضوء .. وليس هو ذلك المنافق الذى قد ترى فى مظهره

معنى «الهرباء» فإذا خبرته .. كان مظهره أفضل من مخبره !!

ورحم الله الشيخ على الطنطاوى حيث قال : عرفت كثيرا من الذين قاموا

يحاربون الاستعمار والمستعمرين ولكنهم يسلكون طريقهم ، ويفكرون تفكيرهم ،

ويعتادون عاداتهم ، ولا يكاد جلهم يتمسك بما يدعو إليه الإسلام ، فخبروني : كيف

يحارب الاستعمار من الاستعمار فى رأسه ، فأفكاره أفكار المستعمرين ، والاستعمار

فى قلبه فهو تابع لهوى المستعمرين ، والاستعمار فى بيته وفى أسرته فسلوكه فى

البيت سلوك المستعمرين ؟

إذا كنت لا أستطيع أن أتححر أنا منهم، فكيف أحرر بلادى من الاستعمار ؟

الذاكرة الواعية :

كان الشيخ حسن البنا يلاقيك مرة واحدة .. وبعد عشر سنوات يناديك باسمك

على تقادم العهد :

وهكذا يعلن الدرس المفيد عن نفسه وهو :

كيف تكون الذاكرة الواعية خاصة الداعية ..

إنها ذاكرة مغناطيسية :

بحيث يراك مرة واحدة ..

ثم .. وبعد تقادم العهد .. وتطاول الزمان ..

يلقاك .. فإذا به يناديك باسمك ..

بل وعملك أيضا !!

وتصور عندئذ كيف يستقطب الداعية بهذه الموهبة الفذة .. ناسا ما كان يظن

أحد أن يعودوا إلى الله يوما .

هل هناك غزو فكرى ؟

اختلفت الإجابات :

قال قوم : لا ..

ذلك بأن الفكر الوافد غير قادر على اختراق العقل والوجدان المسلم ..

والموجود فعلا هو :

غزو عسكري

ولكى نكون أقوياء : فلنقدم أحسن ما عندنا .

لنطرد به سيع غيرنا .

وأجاب قوم :

إن هناك جرائم وافدة علينا من الخارج ، وهذه الجرائم .. جعلت فكرنا جثة هامدة !

وهذا يأس من روح الله .

وقالوا :

ينفى بعض الباحثين أن يكون هناك ما يسمى بالغزو الفكرى قائلا :

مرحبا به .. ونحن له !!

ثم ينكر على من يقف ضد الفن ..

مستشهدا برأى «إقبال» والذى رحب بالفن لكنه اشترط أن يكون قويا ..

ونقول للمنكر :

معنى الفن فى ذهبك .. مختلف عن معناه فى ذهن «إقبال» .

لأن اشتراط القوة يعنى رفض «الفن» العابث وإلا فأية قوة فى «الرقص» الذى

تجراً بعضهم فقال : إنه عبادة !!؟

والواقع الصارم ناطق بأن هناك غزوا فكريا وبخاصة من اليهود :

الذين جادلوا الرسول

وألّبوا عليه العرب .

ثم أثاروا الفرقة بين القبائل .

وقد أجادوا اللغة العربية .. وأهلهم ذلك للعمل فى بلاط الخلفاء ..

ومن هناك سرى فكرهم سماً بطيئاً فى جسد الأمة ..

وساعد على ذلك ..

سماحة الإسلام

وشهد شاهد .. من بنى ..

قال أبا إيبان . .

١ - [نحن حقا ندين بكل شيء فى العصور الوسطى إلى ما تلقيناه عن العرب].

٢ - اعترفوا بخصوبة اللغة العربية وتطورها . . بخلاف العبرية المحدودة الملتزمة فقط بالتوراة وقالوا : نستطيع التعبير عن كل أمانينا بالعربية دون العبرية .
ولذلك ألف اليهود مقامات يعارض بها مقامات الحريرى .
[وإن كان بعضهم ينكر ذلك اليوم نفاقاً] .

من قذائف الحق :

يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٦ - ١٨]

يقول علماؤنا ما معناه :

١ - شأن الخلق هو :

الترف . . والنفى فى لذات الدنيا .

وهكذا المخلوق :

ولكن الخالق سبحانه وتعالى :

لا يخلق إلا لفوائد : دينيه ودنيوية .

ولا يريد الله سبحانه . .

ولو فرض هذا الخلق هو ما يشاء . . لاتبعا لمزاجكم . .

ومما شاء تعالى :

أن يغلب اللعب . . بالجد .

والباطل . . بالحق .

الحق : الذى لا يصيب الباطل فى يده أو فى قدمه ..

وإنما ... يصيبه فى دماغه .. فإذا هو لا شيء !

وعلى الداعية المسلم أن يدرك هذا :

وأنه بالحق .. فى الموقف الأفضل .

وإذا كان لخصومه إعلام يشوش عليه .. فليعلم أنهم يصفون :

يصفون .. ولا يقولون ..

والمستقبل فى النهاية لك !

إنك وأنت صغير .. تحكم على الناس بهذا المقياس :

هل هم أقرباء .. أم غرباء ؟

ثم تترقى من بعد ليكون الحكم بناء على الموقف الأخلاقى :

هذا الرجل طيب .. أم شرير ؟!

فأنت مع الخير وضد الشرير .

ثم تحبىء المرتبة الأعلى :

فلا خير .. ولا شرير ..

وإنما : أحب هذا الرجل .. لأنه إنسان تم تعامله على هذا الأساس .

وانطلاقاً من هذا الأساس الرحب : فإنه لا شماتة فى أحد :

فالعقوبة للعبارة .. وليست للتشفى يقول تعالى : ﴿ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾

[يونس : ٩٢]

والمطلوب فقط : أن نحمد الله عز وجل على هلاك الظالمين ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ

الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٥]

من تجارىبى :

ذهب الدكتور «محمد بشر» إلى قريتي مدعوا إلى الحضور كشاهد على عقد قران

هناك ..

ودخل القرية تحت أقواس النصر .. تحوطه قلوب المحبين على قدر ماله فيها من مقدماتهم .

وتفقد الرجل المدعويين .. فلم يجدنى بين الحاضرين .. وكان الظن أن أكون فى تقدماتهم ..

ولما سأل عنى متعجبا .. صدرت الأوامر إلى فتى ليتصل بى هاتفيا يدعونى إلى «ضرورة» الحضور ..

وتبعه الدكتور بشر .. حتى يطمئن على حضورى .

واستقبلت صوت من يقول لى .

أنت مدعو إلى عقد قران فلان عصر اليوم .. ومعك على الخط الدكتور محمد بشر .. والذى قلت له :

لن أحضر .. فقد دعى غيرى منذ أسبوع ولولاك .. لم أذع ..

قال : لقد تعجبت من غيابك ولما سألتهم قالوا : إن القرضاوى فى الطريق ..

وواضح أن هذا دعاء .. والقرضاوى لن يحضر !!

وقلت له : هاهم أولاء رجالك - الذين ربيتهم - يشددون الحصار على ..

لتكون كلمة الحفل لفكر معين .. ومفكر معين قد يكون تحت سن العشرين !!؟

وسوف يكون لى معك لقاء .. حتى أوافيك بحقيقة الموقف .. وخطورة هذا

الاتجاه .

وحتى الآن لم ألتق به !!

فلقد حيل بينى وبين من أحب .. طبق منهج خاطئ هو :

أن من ليس معنا .. فهو علينا !!

والحق :

أننى معهم فيما وافق السنة وعليهم .. فيما خالفوه فيها ..

ومما خالفوا فيه :

الاقتصار على فكر معين .. فى زمان تطور فيه الأمم أسلحتها .. بينما يظل الدعاة «محللك سر» يؤمنون بناس .. ويرفضون ناس .. لمجرد أنهم لا يأتمرون بأمرهم ليفعلون ذلك ولو اضطهرهم ذلك إلى التحايل .. والمناورة .
ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به .. لكان أقوم قليلا وأهدى سبيلا .

وما يزال الجمود مستمرا :

وهى قصة تلميذى الذى جلس بين يدى مئات الساعات .
فلما أراد عقد قرانه .. ذهب بنفسه إلى زميلى الذى تتلمذ عليه وقبل اليوم المحدد بأيام ..

لكنه - بالنسبة لى - أرسل إلى أخاه .. وأرسله متعمدا فى وقت كان القرآن يتلى بين يدى صلاة الجمعة .. طبق نفس خطة التحايل ..

لأن المفروض فى هذا الوقت أن يكون المدعو فى المسجد ينتظر الصلاة !!

ويعنى ذلك فزع أخيه الذى رأى .. وكان الظن ألا يرانى !!

والحادثان مقترنان بثالثة الأثافي : فقد لقيته يطوف حول الكعبة المشرفة وأسكت بيده ضيفا عزيزا هو وضيوفه .. وشربنا ماء زمزم جميعا ..

وكان الظن أن تنقشع سحابة صيف حاول المغرضون أن يجعلوها فى سماء حياة ناس .. تجرى فى عروقهم دماء واحدة !!

وعلى نفس الخط سار هذا الفتى الذى دعا غيرى .. ولم يدعنى .. حتى إنه فى ذهابه وإيابه .. كان يمر أمام عتبة دارى ...

وضربت ضربتى حين حضرت بلا دعوى .. لاكتشف سر هذه المواقف جميعا ..
فهؤلاء الشباب لهم قلوب .. ولهم مشاعر تهفو .. ولا خصومة بينى وبينهم ..

ولكن القضية هى : إبعادى عن ساحة الحديث .. خوفا على أفكار الشباب أن

تهتز إذا حدثتهم !!

وقد صرح بذلك واحد من شباب القرية الذى قال لى :

نشرح كتبك للشباب ..

لكن لا ندعوك .. خوفا من تعليقاتك ؟!

ولما قلت له :

أهل مكة أدرى بشعابها ..

وسكت الفتى ..

لكن رنين الهاتف .. شدنى إليه

فإذا مكالمة من .. أبو ظبى «

تدعونى إلى التعاون مع إخوة لى من الدعاة .. لنكون وعاظا على مدى شهر
رمضان المبارك .

وقلت :

سبحان الله ...

إنه الرد الإلهى على قوم غافلين :

غافلين عن تدبير الله تعالى ..

والذى يغلق باب ... ليفتح أبوابا ..

والسؤال الآن :

هل هؤلاء الشباب سعداء بإسلامهم ؟

إنهم مساكين .. ممزقون .. حائرون :

بين داع إلى الله لم يسئ إليهم .

بل أحسن إليهم ويحسن .

وبين أوامر مشددة تحول بينهم وبين ما يشتهون !!؟

وأسعد من هذا الفتى

أخوه الفلاح .. الذى يشق الأرض بفأسه .. يبلل وجه الأرض بحبات العرق

يسح بها ذنوبا لا يكفرها إلا اللهم فى طلب لقمة العيش!!

ولكن تدبير الله تعالى فوق كل تدبير وكان لابد أن يجبر الله خاطر عبد أرادوا

كسر خاطره !!

إن الحياة جميلة .. وأجمل منها من يعمل فيها :

الجمال : أجمل من الصحراء .

والحوت : أجمل من البحر .

والأسد : أجمل من الغابة .

والطائر : أجمل من الروض

والسعادة بالجمال أكمل منها بالمال :

لأن المال لكم ...

أما الجمال : فهو للجميع .

من هدى السنة المطهرة :

السنة المطهرة سفينة نوح :

فمن ركبها .. فقد نجا ..

ومن تركها .. غرق !

ونحن الآن مدعوون إلى ركوب سفينة النجاة ..

النجاة مما نعانى من تمزق .. وبخاصة فى مجال الدعوة .

ونحن واجدون فيها إن شاء الله من المعالم ما يصل بنا إلى شاطئ النجاة بسلام :

خطته ﷺ فى الدعوة :

يقول سبحانه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

يفهم من الآية الكريمة ما يلي :

- ١ - تكليف النبي ﷺ هو في نفس الوقت تكليف لأمته .
- ٢ - وهذا شرف ينبغي أن يكافأ بما يستأهله من جهاد موصول .
- ٣ - إذا كانت الهداية في اللغة «الدلالة برفق» فإن البصيرة النافذة الكاشفة سبيل هذه الهداية .

وهي تقتضى :

أن يكون الداعية بصيرا بطبائع النفوس وتقاليد المجتمع . . . ليتمكن من قيادته إلى التي هي أقوم .

- ٤ - بل عليه أن يكون من الوعى في قمته . كما يفيد حرف الاستعلاء (على . . بصيرة) فالمهم أن تدعوا إلى الله . .

وأهم منه : أن تكون دعوتك على بصيرة تعينك على هداية الناس .

- ٥ - ولا بد من التركيز على ضرورة الإحاطة بمجريات الأمور في المجتمع :

من أجل التعامل مع العاصى في ضوء تقاليد هذا المجتمع :

فالمدعو . . جزء من مجتمعه . .

وعلى أن ندرك اتجاهات الأمور في هذا المجتمع . .

ولا نخاطبه بعيدا عنه

وفي قوله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]

ما يفيد مثالية هذه الأمة .

إلا أن هذه المثالية لا تتحقق إلا بثمرتها من الخبرة والدراية . المؤدين إلى علاج

حاسم لأمراض النفوس :

وفي موقف «جعفر» ﷺ مع النجاشي مصداق ما نقول :

لقد اختار له من الآيات .. ما كشف عن معدن الحق ..

وهي آيات سورة مريم يخاطب بها مسيحيا .. فبكى .. بل أسلم .. مؤكداً أن حوار الحضارات .

- لا تصادم الحضارات ... ممكن ... ما دام هناك منصفون ..

[السؤال] : أحيانا يكون من المدعو تعبيراً عن رغبته. وأحيانا يكون من الداعي

إثارة له : ومن الأول : [قل : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟

قال : « الأنبياء » .

قل ثم من ؟

قال : « الأمل فالأمل .. »

قال رجل : أى الناس أحق بحسن صحابتي ؟

- قال : « أمك » ..

- قال : ثم من ؟

- قال : « أمك »

- قال : ثم من ؟

- قال : « أمك »

- قال : ثم من

- قال : « أبوك »

السؤال من الداعي :

قال لأصحابه :

«أيكم مال وارثه أحب إليه ؟»

فقالوا : كلنا مالنا أحب إلينا ..

قال : « إن مالك ما أنفقت ومال وارثك ما تركت »

بقيت كلها . . إلا الكتف

وأیضا :

« أتدرون من المفلس ؟ »

التعميم :

ما بال أقوام . .

فلا ينسب الذنب لفاعله مباشرة

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

قال رسول الله ﷺ :

« لا عدوى . ولا طيرة - ولا هامة »

فقام إليه رجل فقال :

يا رسول الله ،

البعير يكون به الجرب . فتجرب به الإبل .

قال : « ذلك القدر ، فمن أعدى الأول » سنن ابن ماجه ج ٢ / ١١٧١

فقد أبطل ﷺ التسلسل . . والدور فلو قلنا كل لاحق أعدى من السابق للزم

التسلسل، ولو قلنا : كل جمل أعدى وأعدى زميله لزم الدور . . وهو باطل . .

وإنما هو : القدر الأعلى .

تصحيح المفاهيم :

روى البيهقي عن النبي ﷺ :

« هل تدرون ما الشديد ؟ »

قلنا : الرجل يصرع الرجل !

قال : « إن الشديد كل الشديد : الرجل الذي يملك نفسه عند الغضب » .

« أتدرون ما الرقوب ؟ »

قلنا : الرجل الذى لا يولد له !

قال : « إن الرقوب : الرجل الذى له الولد . ولم يقدم منهم شيئاً » يعنى فى سبيل الله .

قال : « أتدرون ما الصعلوك ؟ »

قلنا : الرجل الذى لا مال له ؟

قال : « إن الصعلوك كل الصعلوك : الذى له المال لم يقدم شيئاً - لله تعالى » .
الإيمان خلق ؟

« أتدرون ما المفلس » :

قالوا : المفلس فينا من لا درهم ولا متاع .

فقال : « إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة - وزكاة وصيام ويأتى وقد شتم هذا .

وقذف هذا .

وأكل مال هذا .

وسفك دم هذا .

وضرب هذا » .

مدارة القساة :

فى صحيح البخارى عن عروة بن الزبير : أن عائشة رضي الله عنها أخبرته صلى الله عليه وسلم أنه استأذن على النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال :

« ائذنوا له ، فبئس ابن العشير » أو « بئس أخو العشيرة » فلما دخل ألان له الكلام . وفى رواية :

فلما جلس تطلق النبى صلى الله عليه وسلم فى وجهه .

وانبسط إليه فقلت : يا رسول الله .

قلت ما قلت . ثم أنت له القول : فقال : « أى عائشة ،
 إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ، أو ودعه الناس اتقاء فحشه .
 منطق البصيرة :

روى البخارى ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه قال :
 مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل غيره : [هو أبو ذر]
 ما رأيك فى هذا ؟

قال : رجل من أشراف الناس . . هذا والله حرى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع
 أن يشفع .

قال : فسكت ﷺ .

ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ : « ما رأيك فى هذا ؟ »
 فقال : يارسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين حرى إن خطب ألا ينكح .
 وإن شفع ألا يشفع .
 فقال ﷺ :

هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا !

[تعليق] :

يقولون : فى الزحام تختلط الملامح . . ولا تستبين من خلال النظرة المجردة . .
 لكن الداعية الحكيم يستطيع أن ينفذ ببصيرته إلى الأعماق . . ومن وراء اللحم
 والشحم يدرك الحقيقة بالبصيرة . . بعد أن عجز البصر عن إدراكها . .

ومن دروس الموقف هنا :

أنه مهما كانت نظافة الظاهر . . فإن هناك أمورا تدق على فهم الإنسان . .
 ولما كان الحكم على المؤمن مهما - وكان الخطأ فى تقديره جسيما قد يجزئ
 السفهاء عليه . .

لما كان الأمر كذلك كان لابد هذا الدرس العملى . . تحريراً للنفس من الانبهار بالمظاهر . . وما يترتب عليه من آثار . .

وهذا ما أراد ﷺ تدريب الصحابة عليه . . ليصبح فى أيديهم المقياس . . فرارا من ضغوط البيئة التى تفسد فيها ملكة التمييز بين الخبيث والطيب فتختلط المعالم . . ويتوه الدليل . .

ولك أن تتصور ضغط البيئة هنا من قسمهم أن هذا الفتى حرى أن تكون لم الصدارة .

وفيما يتعلق بالفتى الفقير لم يقسموا . . كأن وضعه هذا المهين . . وضع ثابت لا يحتاج إلى دليل ، ولا إلى تأكيد .

الإجمال . . ثم التفصيل . .

وكان مما أعانهم على الوصول رغم وعورة الطريق . . طريقته ﷺ فى البلاغ . . ومنها :

التفصيل . . بعد الإجمال . .

أو التوضيح . . بعد الإبهام ؛ ليكون أوقع فى النفس . . وأقر فى العقل .
قال ﷺ :

« أكثر ما يدخل الناس النار : الأجوفان » .

قيل : وما الأجوفان ؟ قال :

« الفرج والفم » .

وقال ﷺ : « أتدرون أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ . .

تقوى الله وحسن الخلق » رواه أحمد .

ب - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال ﷺ يتبع الميت ثلاثة :

أهله . وماله . وعمله .

فيرجع اثنان . ويبقى واحدا :

يرجع أهله وماله ..

ويبقى عمله « متفق عليه » .

ومقصود الحديث :

إيثار ما يبقى على ما يفنى .

كان رسول الله ﷺ حليماً في معاملته، حكيماً في دعوته فكان يحاول الدخول إلى قلوب الناس من الجوانب التي يرى أنها تؤثر عليهم، من غير أن يتفوه بباطل ولا أن يمارس سلوكاً منحرفاً وإن من أمثلة منهجه ﷺ الحكيم في دعوته ما ذكره ابن إسحاق رحمه الله في سياق روايته عن دعوة النبي ﷺ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حصين : أن رسول الله ﷺ أتى قبيلة كلب في منازلهم - يعنى في الحج والمواسم الأخرى - إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم نفسه حتى أنه ليقول لهم : « يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم » (١) .

وأخرجه الإمام الطبري من طريق ابن إسحاق به وذكر مثله (٢) .

ومن ذلك ما أخرجه البيهقي من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : أن أول يوم عرفت رسول الله ﷺ أنني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل « يا أبا الحكم هلم إلى الله عز وجل وإلى رسوله أدعوك إلى الله » ، قال أبو جهل : يا محمد هل أنت متته عن سب آلهمنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلغت فوالله لو أنني أعلم أن ما تقول حقاً ما اتبعتك .

فانصرف رسول الله ﷺ . قال : وأقبل عليّ فقال : فوالله إنني لأعلم أن ما يقول حق ولكن بني قصي قالوا : فينا الحجابة فقلنا : نعم ، فقالوا : فينا الندوة، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، قالوا : فينا السقاية، فقلنا :

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/ ٣٤٩ .

نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا منا نبي . والله لا أفعل .
ففي هذين الخبرين مثل مما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من حكمة وتبصر .
ولكن أبا جهل لم يكن منصفاً .

لقد ساء أبا جهل أن دوحة بني هاشم قد اخضرت وأينعت ثمراتها، بينما ظلت
دوحة بني مخزوم على جفافها وذبولها كسائر فروع قبيلة قريش فحسد بني هاشم على
ذلك الشرف العظيم الذي ليس باستطاعة قومه أن يصلوا إليه، ولو عقل وأدرك لعرف
أن بإمكانه إنقاذ نفسه وقبيلته، والرفع من شأنها بالإيمان برسول الله ﷺ وأتباعه .
ومن حكمته ﷺ قوله : « سبقك بها عكاشة » ولم يقل : لست من
أهلها .. تفاديا لإحراجهم .

تعليم الصحابة :

وكان ﷺ :

يربى المعلمين من أصحابه ، ويزودهم بالنصائح ، ويضع لهم الخطة التي يسرون
عليها، ثم يرسلهم إلى أنحاء الجزيرة ، ليدعوا الناس إلى الإسلام، ويعلموهم الكتاب
والحكمة ، ففي السنة العاشرة من الهجرة (٦٣١م) أرسل على بن أبي طالب كرم الله
وجهه في ثلاثمائة فارس إلى بني مذحج من أهل اليمن، وقال له : «سر حتى تنزل
بساحتهم ، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله ، فإن قالوا نعم فمرهم بالصلاة ، ولا تبغ
منهم غير ذلك ، ولأن يهدى بك الله رجلا واحدا خير مما طلعت عليه الشمس ، ولا
تقاتلهم حتى يقاتلوك وإذا جلس إليك الخصمان ، فلا تقض بينهما حتى تسمع من
الآخر » فسار حتى انتهى إليهم ولقى جموعهم ، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، ثم
أجابوا بعد قتالهم وهزيمتهم ، وتابعه رؤسائهم وأسلموا، وطلبوا منه أن يأخذ زكاة
أموالهم ، وأن يكونوا على من وراءهم من قومهم .

واتجاهه العام ، ﷺ ، في توجيه أصحابه ، تمثل في قوله : « يسروا ولا
تعسروا، وبشروا ولا تنفروا » .

دون تزمت أو إرهاب، وكان يتخول أصحابه بالموعظة، مخافة أن يسئهم، أى

يطلب الحال التي يأنس فيها نشاطهم للموعظة فيعظهم ، ولا يكثر عليهم فيملوا . . .
يلقى بالموعظة في أسلوب من التمثيل والتصوير ، حتى يكون أبلغ في الإفهام وأقوى
في التأثير ، يعطى كل من جلس إليه نصيبا من وجهه ، وما استصغاه أحد إلا ظن
أنه أكرم الناس عليه .

تابع الوقار :

ومع شدة تواضعه ﷺ . .

كانت هيئته تغزو القلوب فتملاها . .

فلم يكن أحد يجروء على أن يحد النظر إليه ﷺ .

واجبنا :

التواضع في الطاعة .. فلا غرور :

نتواضع بتذكرنا معاصينا ، ثم نتواضع .. في معاملة الناس .

وكان ﷺ يستقبل الوفود .. استقبال العارف بطبيعة الوفد .. ومنزله .. ومن ثم

كان يتعامل معهم منطلقا من فكرته العامة عن الوفد :

كانت الوفود تنزل متفرقة :

وفد هنا .. ووفد هناك ..

إلا وفد ثقيف .. فقد عومل معاملة خاصة بقوم يراد إسلامهم ليكونوا سندا

للمسلمين :

ومن مظاهر تكريمه :

١ - كان ﷺ يقوم على خدمة وفد ثقيف بنفسه . .

٢ - وقد يطول وقوف ﷺ في الخدمة حتى يراوح بين قدميه .

٣ - وكان يحادثهم .. ويؤانسهم .

٤ - وقد تأخر عنهم يوما .. فاعتذر لهم !

٥ - لكن مجاملته لا تكون على حساب الحق أبدا ..

فقد طلبوا إليه إعفاءهم من الصلاة .. فرفض قائلا :

« لا خير في دين ليس فيه صلاة ! »

ولما طلبوا الإبقاء على صنمهم رفض أيضاً !

فلا مساومة على العقيدة .

وكان وفد «بنى تميم» غشوما .. ومع ذلك جاملهم ... فخرج إليهم .. لكن يبقى لثقيف منزلتهم المتميزة .

ومن تواضعه :

ما روى عن أسماء بنت أبي بكر : (صحيح ابن حبان/١٦/١٩٨/رقم ٧٢٠٨)

قالت : لما دخل رسول الله المسجد الحرام - أي بعد الفتح - أنه أبو بكر رضي الله عنه بأبيه .. يقوده ..

فلما أتى . رآه رسول الله ﷺ قال :

«هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية».

قال أبو بكر : يارسول الله :

هو أحق أن يمش إليك من أن تمشي إليه .

قال :

فأجلسه بين يديه .. ثم مسح صدره . ثم قال له :

«أسلم» فأسلم !؟

ومن تواضع سيد الدعاة :

إلا إن أدعياء الزعامة :

إذا مدح غيرهم هب مذعورا

ولكن الزعامة الإلهية : عزها في تواضعها :

ومثالها الأعظم هو :

محمد ﷺ .

والذى قال :

« نحن أحق بالشك من إبراهيم . . »

ومع أنه عليه الصلاة والسلام وصل إلى العرش . . بينما كان يونس عليه السلام فى بطن الحوت ولكنه ﷺ يقول لأصحابه يوما :

« لا تفضلونى على يونس بن متى »

وعن عائشة ؓ :

سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بعض صلاته :

« اللهم حاسبنى حسابا يسيرا »

فلما انصرف . قلت : يا رسول الله :

ما الحساب اليسير ؟ قال :

« أن ينظر فى كتابه . . »

ثم يتجاوز عنه :

من نوقش الحساب عذب

الحب فى الله :

قال ﷺ لعلى :

« إنما أرضى لك ما أرضاه لنفسى ،

وأكره لك ما أكره لنفسى » .

وعلى جسر من هذا الحب تعبر النصيحة لتصل إلى مكان الإقناع . .

لقد دخل تجار المسلمين آسيا . .

وكان معهم الحب . .

وكان فى قلوبهم الحب . .

الذى فتحوا به المقلوب هنا . . ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

خطاب الرسول إلى النجاشى :

أسلم : وهذا أمر

تسلم : وهو الترغيب .

فإن توليت : وهذا هو التهيب .

يؤتلك الله أجرك مرتين : ترغيب آخر

والرسالة من :

محمد : عبد الله ورسوله

وهو التواضع . . الذى يفتح الله تعالى به مغاليق القلوب . .

ثم هى رسالة يغفلها وتنتهى مهمته . . لتبدأ مهمة المدعو . . الذى يختار لنفسه ما

يحلوه . .

ولما شكّا «خباب» رضي الله عنه للرسول ﷺ قائلا :

ألا تدعونا . .

ألا تستنصر لنا . .

لم يجبه ﷺ بخطبة وعظية .

ولكن بإبراز القدوة المؤكدة أن ما تشكو منه تحمله رجال من قبلك . . بل أقسى

منه :

فقد كان المؤمن ينشر بالمنشار نصفين . . ما يصرفه عن دينه .

إن تاريخ الكفاح طويل . .

ولكنه لا يعرف المستحيل !

قال ﷺ «المعاذ» رضي الله عنه لما أطل فى صلاته :

« أفتان أنت يا معاذ ؟ »

ولم يقل له : أنت فتان !

وفى منطقه ﷺ :

إيناس لمعاذ لما ناداه بالاسم :

يا معاذ . . .

ويعنى باستفهامه ﷺ :

أتريد أن تكون فتاناً !!؟

وفى ذلك تنفير له من أن يعود لمثل ما حدث من التطويل .

من صور الوفاء :

ثابت بن قيس :

رضي الله عنه . . وقيمة الوفاء

تحققت نبوة الرسول ﷺ . . واستشهد « ثابت بن قيس » رضي الله عنه مقبلاً غير

مدبر :

ثم جاء فى « الرؤيا » لصاحب له ، وقال له :

١ - درعى : سرقة فلان . . ووصفه فى مكان كذا . ووجد كذلك

٢ - وعلى دين فقل للخليفة يقضه عنى .

٣ - غلامى : حر لوجه الله .

ولقد نفذ الخليفة وصيته بحذافيرها .

وهى قيمة الوفاء . . وبعد الممات . . تحتفظ للعاملين بحقوقهم . .

وليت شعرى : إنها رسالة موجهة إلى المؤسسات التى يحال واحد منها إلى

المعاش . . فتقطع كل صلة به !

ذات يوم . . وعظ ﷺ موعظة وجلت منها القلوب . . .

وبكى الصحابة جميعا.. إلا رجلا واحدا فقد ضحك ؟!

فلما سئل عن سبب ضحكه قال :

إن الكريم إذا قدر عفا .

الفارق الهائل :

ولقد علق مسيلمة الكذاب قومه :

فأحل لهم الزنا . والخمر .

وأعفاهم من الصلاة :

ولكن رسولنا ﷺ كان «نذيرا»

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤]

ومعنى ذلك :

أن متاعبه بدأت ببدء الدعوة ولو قلق المجتمع لرحّب به .

لقد أخذت الدعوة بمخائق القوم فعارضوه معارضة يغذيها حقد مقيم .

والأمة .. على الطريق :

كان لحسان في حديث الإفك رأى لم يرض عائشة رضي الله عنها :

وقد سمعت ابن أختها « عروة بن الزبير » سمعته يسب « حسان » رضي الله عنها

فقال :

يا ابن أختي :

دعه . فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ . مسلم ١٦٣ / ٧

ومع أن زينب رضي الله عنها كانت في طليعة من تغار منهن عائشة رضي الله عنها .. لكن ذلك لم

يمنعها من إنصافها . والثناء عليها :

تقول رضي الله عنها :

هي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ في المنزل عند رسول الله ﷺ .

ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب وأتقى لله عز وجل وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تصدق به وتقرب به . ماعدا سوره من حدة كانت فيها . تسرع منها الفئحة) «سنن النسائي/ ٦٥/ ٧ .

قال أنس : أقبل ﷺ المدينة فأضاء المدينة . .

فلما مات . . أظلم فيها كل شئ . .

فلما دفناه . . أنكرنا قلوبنا .

لقد كانت عظمتة ﷺ مشتقة من انتصاره على نفسه :

ذلك . بأن القائد العظيم هو : القادر على نفسه * قبل أن يكون قادرا على غيره . . فليس من الصعب أن يجد القائد ألوف الجنود تحترمه وتحبه .

ولكن العظمة الحقيقية هي :

أن يكون هذا القائد قادرا على ضبط نفسه .

وحرمان نفسه من الراحة . . تماما كالجنود .

وحرمان نفسه من الطعام والشراب والنوم . .

تماما كالجنود . . أما دعوى التقشف فلا . . إلا بالقدوة .

لكن أديعاء الزعامة . . يحاولون السيطرة . . فيتم لهم ذلك . . . ولكن على

القبالب لا على القلوب . .

وإلا . . فإن نفوسهم تنمرد عليهم إذ تزين لهم التضحية . . فإن نفوسهم تنمرد

عليهم إذ تزين لهم التضحية بأعهم . . فى سبيل بقائهم . .

وما ظنك برجل يتسبب فى تخريب الديار . . فى سبيل بقائه هو .

التأسي برسول الله ﷺ :

قال طالب العلم للإمام مالك :

وددت أنا رأينا رسول الله ﷺ .

فقال له الإمام :

وماذا كنتم 'نفعلون' ؟

قال الفنى :

نوفره .. وتتأذب بين يديه

فقال له الإمام :

فى استطاعتكم ذلك اليوم ...

ما بلغكم من أمره ونهيه .. فأطيعوا وانتهوا ..

وما أحب .. فأحبوا .

وما يكره .. فاكروهوه .

ولو فعلتم .. كنتم موقرين له مؤدين !!

استأذن الرجل لدى الباب قائلاً :

أألج ؟ !!

فقال ﷺ لرجل :

« اخرج إلى هذا .. وعلمه الاستئذان » فسمعها الرجل .. فالتزم بأمره ﷺ وقبل

أن يعلمه الرجل !

ومن فقه السنة .

فليبلغ الشاهد ..

تبليغ العلم فرض كفاية . حتى ينتشر .

ورب مبلغ أوعى من سامع .

[وقد احتج العلماء بهذا لجواز رواية الفضلاء وغيرهم من الشيوخ الذين لا علم

لهم ولا فقه .. إذا ضبط ما يحدث به] .

من بلاغته ﷺ :

لما مر جماعة وهو مع صفية قال :

« هذه صفية بنت حبي »

ولم يقل : هذه زوجتي

لماذا ؟

لو قال ﷺ : هذه زوجتي لكان ينفي التهمة عنه هو شخصيا لكنه لما قال :
صفية بنت حبي نفى التهمة عنها أيضا . . معه .

أ - إنها من بيت يمعنها شرفه من الخطأ .

ب - فإذا أضيف إلى ذلك كونها زوجته .

- وهذا ما فهمه الجمع . . فإن خاطر السوء غير وارد بالمرّة .

ألا إن أصلها مانع لها .

فكيف وهى زوجة الرسول !!؟

[الدعوة « بالكُونيات »]

لأنها لغة التفاهم مع علمائهم :

ومنهم «كارليل» الذى كان يقول :

[أنا لا أهتم كثيرا بما جاء به القرآن من الصلوات والتحميد . .

ولكنى لا أملك نفسى حين أجده ينفذ إلى أسرار الكون . وبواطن الأمور فيقول

للناس :

﴿ قُلْ انظُرُوا ﴾ [يونس : ١٠١]

يقول عز وجل :

﴿ سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]

وكان «الدينورى» مؤلف كتاب «النبات» يذهب إلى الأرض ليرى النبات على

الطبيعة .

« سورة الفجر »

نموذج من الإعجاز العلمى للقرآن الكريم

قال تعالى : ﴿ وَالْفَجْرِ ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّدِي حَجْرٍ ﴾ [الفجر : ١ - ٥] .

الآيات تتحدث عن عدد من الظواهر الفلكية التى اكتشفها العلم الحديث مثل دوران الأرض حول نفسها فيحدث الليل والنهار ودوران القمر حول الأرض فى دورة مدتها شهر ثم دوران الأرض حول الشمس دورة سنوية .

ويقول الدكتور أنور قدرى الباحث الفلكى فى بحثه : أقسم الله عز وجل بهذه المصطلحات الخمسة : الفجر ، وليالٍ عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر لأن كلا منها تشكل آية من آيات الله فى هذا الكون المعجز فى دقة نظامه واستمرارية دورانه دون أدنى خطأ أو خلل فبدأ بالقسم بالفجر وهو انفجار الضوء بعد الظلام وكأنه حدث يتجدد بيننا ، وقال : والليل إذا يسر أى مسار الليل وكأنه شئ متواصل بمعنى أن الظلام هو الأصل أو الشئ الغالب وأن النهار ما هو إلا سلخة من الليل «والليل نسلخ منه النهار» «يغشى الليل النهار» والكون كله ظلام دامس رغم أنه ملئ بملايين النجوم الكبيرة التى تكبر الشمس بعدة مرات ولكن جو الأرض فقط بما فيه من ذرات التراب وبخار الماء وبعض العناصر الأخرى تقوم بتشتيت الضوء الصادر من أشعة الشمس فتضئ جو الأرض (أقل من ٢٠٠ كم ارتفاعاً) .

والإعجاز هنا كما يقول الباحث : هو الربط بين الفجر والليل إذا يسر فالآية تشير إلى دوران الأرض حول نفسها فيحدث الليل والنهار وهذه حقيقة فلكية أكدها القرآن من أكثر من ألف وأربعمائة سنة حيث قال تعالى : ﴿ يُكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر : ٥] إشارة إلى كروية الأرض - ﴿ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] أى سريعا وهو تعبير يصف سرعة دوران الأرض حول نفسها - ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿يس : ٣٧﴾ أى حركة الأرض والشمس والقمر فى الفضاء .

أما الليالى العشر فالمقصود بها الشهر القمري أى دوران القمر حول الأرض كل شهر لحديث رسول الله ﷺ « نحن أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب إنما الشهر هكذا هكذا وهكذا » وأشار بأصابعه العشر ثلاث مرات أى أن الشهر ثلاثون يوماً وهكذا وهكذا وأشار بأصابعه العشرة ثلاث مرات أخفى فى المرة الثالثة أصبع الإبهام أى أن الشهر تسعة وعشرون يوماً « بمعنى أن الشهر إما ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون يوماً وأنسب تعبير عن الشهر أنه عشرات وقال تعالى : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير : ٤] والآية تشير إلى حدوث الشهر الهجرى بدوران القمر حول الأرض دورة كاملة كل شهر . وقال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة : ١٨٩] وقال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾ [يونس : ٥] .

ثم يأتى الكلام عن السنة الهجرية وهى تحدث فلكيا من دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة كل ١٢ دورة للقمر حول الأرض قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ﴾ [التوبة : ٣٦] «ومعلوم فلكيا أن هناك سنة هجرية بسيطه ٣٥٤ يوما وهى الشفع كما ذكرت الآية أى زوجية تقبل القسمة على اثنين . وهناك السنة الكبيسة وهى تتكون من ٣٥٥ يوما وهى السنة الوتر الزوجية أو الشفع «البسيطة» أولا ذلك لأنها تتكرر فى الكون أكثر من السنة الكبيسة بمعدل ٢ إلى ١ تقريبا . وإذا تأملنا هذه الآيات العظيمة نجد أنها برهان ساطع لكل صاحب عقل أن لهذا الكون خالق عظيم أبدع نظامه بدقة متناهية لا يستطيع أحد أن يوقفها أو يجرىها قال : تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] فحق لله تعالى أن يسأل : ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ . أى صاحب عقل والجاحد الذى ينكر وجود الله وهذه آياته العظمى

التي تملأ الكون .

ويحلوا لى أن أنقل هنا قصة طريفة للفلكى الشهير السير جيمس الأستاذ بجامعة كمبردج ، يرويها الدكتور عناية الله ، هو يقول :

« كانت ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩ م وكانت السماء تمطر بغزارة ، وخرجت من بيتى لقضاء حاجة ما ، فإذا بى أرى الفلكى المشهور السير جيمس جينز - الأستاذ بجامعة كمبردج - ذاهباً إلى الكنيسة ، والإنجيل والشمسية تحت إبطه ، فدنوت منه ، وسلمت عليه ، فلم يرد على ، فسلمت عليه مرة أخرى فسألنى : ماذا تريد منى؟ فقلت له أمرين ياسيدى! الأول هو أن شمستك تحت إبطك رغم شدة المطر! فابتسم «السير جيمس» وفتح شمسيته على الفور، فقلت له : وأما الأمر الآخر فهو: ما الذى يدفع رجلاً ذائع الصيت فى العالم - مثلك - أن يتوجه إلى الكنيسة ؟ أمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : عليك اليوم أن تأخذ شأى المساء عندى ، وعند ما وصلت إلى داره فى المساء ، خرجت ليدى جيمس فى تمام الساعة الرابعة بالضبط ، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني ، وعندما دخلت عليه فى غرفته ، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشأى ، وكان البروفيسور منهمكاً فى أفكاره ، وعندما شعر بوجودى ، سألنى ، ماذا كان سؤالك ؟ ودون أن ينتظر ردى ، بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية وطرقها ومداريتها وجاذبيتها ، وطوفان أنوارها المذهلة حتى إننى شعرت بنفسى يهتز بهيبة الله وجلاله ، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائماً والدموع تنهمر من عينيه ، ويداه ترتعدان من خشية الله وتوقف فجأة ، ثم بدأ يقول : يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى ، وعندما أركع أمام الله وأقول له : «إنك لعظيم» ! أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء ، وأشعر بسكينة وسعادة عظيمتين ، وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة ، أفهمت يا عناية الله ، لماذا أذهب إلى الكنيسة ؟ » .

ويضيف العلامة عناية الله قائلاً : لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفان فى عقلى ، وقلت له : يا سيدى ! لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التى رويتها لى ،

وتذكرت بهذه المناسبة آية من آى كتابى المقدس ، فلو سمحتم لى ، لقرأتها عليكم فهز رأسه قائلاً : بكل سرور فقرأت عليه الآية التالية :

﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿ (١) .

فصرخ السير جيمس قائلاً : ماذا قلت ؟ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ مدهش ! وغريب وعجيب جداً !! إن الأمر الذى كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة ، من أنبا محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة ؟ لو كان الأمر كذلك ، فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب موحى من الله .

ويستطرد السير جيمس قائلاً : « لقد كان محمد أمياً ، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ، ولكن «الله» هو الذى أخبره بهذا السر .. مدهش .. ! وغريب وعجيب جداً (٢) .

شهادة الواقع :

حين بحث علماء اليابان فى تأثير .. «الموسيقى» على الأسماك . واستخدموها فى الصيد .. كان العرب قد سبقوهم إلى ذلك بما يزيد على أحد عشر قرناً من الزمان :

يقول الجاحظ تحت عنوان [تأثير الصوت] .

يقول :

«بالأصوات ينوّمون الأطفال .

والدواب : تصر أذانها إذا غنى المكارى .

والإبل : تصر أذانها إذا حدا فى أثرها الحادى . وتزداد نشاطاً . ثم تسرع .

ويجمع الصيادون السمك فى حظائرهم التى يتخذونها له : وذلك أنهم يضربون

(١) سورة فاطر : ٥٣ .

(٢) الإسلام يتحدى : ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

بعضى معهم ، ويعطعون... فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار . مصغية إلى تلك الأصوات . حتى تدخل الحظيرة [قصة إسلام عالم يابانى .

يابانى .. يعشق تراب مصر

يقول أحمد كمال أوكاموتو وهو اسمه الجديد بعد إشهار إسلامه :

حضرت إلى الوطن العربى عام ١٩٧٠ وبالتحديد إلى سوريا وكنت موافد من وكالة التنمية الدولية اليابانية التابعة للحكومة اليابانية كخبير كاراتيه بوزارة الداخلية السورية وخلال ست سنوات قمت بالتدريب فى سوريا والعراق والأردن ولبنان وفلسطين ومصر وشاركت فى تأسيس اتحاد الكاراتيه فى هذه الدول .

* * *

* فى عام ١٩٧٦ انتقلت للعمل بمصر بناء على طلب الرئيس الراحل أنور السادات للعمل كخبير ومدرب للكراتيه بالاتحاد المصرى العربى والأفريقى ونشر اللعبة فى أكثر من ٤٥ دولة عربية وأفريقية وحتى عام ١٩٨١ قمت بإنشاء مركز الرياضيات اليابانية بنادى الزهور بالتعاون مع جامعة كوكو شيكان بطوكيو . . ورغم توقف العمل بالمركز مع مجلس الإدارة السابق للنادى إلا أننى رفضت ترك مصر وكنت أُنقل بين الدول العربية والأفريقية بصفتى خبيراً أحاضر فى دورات المدربين ثم أعود إلى مصر . . والحمد لله عاد مركز الرياضات اليابانية بنادى الزهور للعمل من جديد بعد أن حصل النادى على منحة يابانية قدرها نصف مليون دولار لتجديد المركز وأدواته وحضر توقيع العقد السفير اليابانى بالقاهرة .

* * *

* حصلت على شهادات وأوسمة كثيرة أثناء عملى بمنطقة الشرق الأوسط أهمها وأقربها إلى قلبى تكريم الرئيس حسنى مبارك الذى منحنى وسام الرياضة من الطبقة الاولى عام ١٩٨٣ وهو ما يدفعنى الآن لتقديم الشكر له على ما يقدمه للرياضة والرياضيين فى مصر . . أيضاً شهادة تقدير من الرئيس الراحل أنور السادات ومن الرئيس الراحل حافظ الأسد فى سوريا ومن رئيس ليبيريا ومن اتحادات أفريقية وعربية

كثيرة كلها معلقة على جدران شقتى بالزمالك .

ويضيف قائلا : أشهرت إسلامى على يد الشيخ محمد متولى الشعراوى بالأزهر الشريف فى أوائل الثمانينيات وأتردد بين الحين والآخر على الأزهر وحصلت مؤخرا على نسخة من القرآن الكريم باللغة اليابانية .

وعن مشروعاته بالقاهرة قال : أعمل حاليا مديرا فنيا لمستشفيات الكاراتيه ويقوم المركز الثقافى اليابانى بالقاهرة بإنشاء مركزا للرياضات اليابانية أسفل كوبرى عباس على غرار المركز الموجود بالزهور . . ويقوم اللواء منير ثابت رئيس اللجنة الأولمبية المصرية ورئيس المركز الثقافى اليابانى بمجهود كبير لإنشاء هذا المركز بأسرع وقت وأشغل فى هذا المركز نائب الرئيس والمدير الفنى .

ويقول أحمد كمال أوكاموتو : بدأت أتقن اللغة العربية بالإضافة إلى أننى أجيد الإنجليزية واليابانية ولا أنكر أن سنوات عمرى التى قضيتها فى مصر ووصلت إلى ٣٠ عاما وراء تمسكى بالبقاء فى مصر حتى آخر يوم فى عمرى .

وعن أمنياته يقول : أتمنى أن أسافر إلى السعودية لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول ﷺ فقراءتني الكثيرة عن الإسلام وراء شوقى الشديد لزيارة الأراضى المقدسة . . وهو ما أتمنى تحقيقه فى أقرب وقت .

وابداً بمن تعمل :

يقول عز وجل :

﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤]

أشار «ابن حجر» هنا :

بأن عليه ﷺ أن ينذر أقرباءه . .

حتى لا يستجيب لعاطفة القرابة .

ليظل الولاء كله لله تعالى :

وهكذا الصالحون :

يرجون رحمته ويخافون عذابه

فلا يخافون . . ولا يرجون . . ولا يحبون إلا الله عز وجل . .

« أن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما . . »

إن القرابة . . تحتاج إلى مودة ، والمودة لا تحتاج إلى قرابة ورب أخ لك لم تلده أمك .

تفضيل بعض الصحابة على بعض :

أ - طوائف مفضلة :

أهل بدر - أصحاب البيعة - أهل أحد - أصحاب بيعة الرضوان السابقون ، ممن صلى إلى القبلتين - الخلفاء الراشدون الأربعة .

ب - الصحابة كلهم عدول . . وتفضيل بعضهم لا يخرج بالآخرين من العدالة لكنهم : تقاتلوا . وتأولوا .

١ - هم مجتهدون متأولون . . وكان لكل شبهة .

٢ - كانت القضايا متشابهة . . فدقت . . فنعدرت الرؤية الواحدة .

ولقد كانوا في اجتهادهم واحدا من ثلاثة .

أ - قسم ظهر له أن الحق مع طرف . . ومن واجهه فهو باغ يجب قتاله .

ب - قسم ظهر له العكس .

ج - وقسم توقف : لأن السبل اشتبهت أمامه . . ولو ظهر الحق في جانب . .

لما جاز له أن يتوقف . . لأن نصرة المؤمن واجبة .

الآراء في تفاضلهم :

١ - لاتفاضل : ونمسك عن ذلك .

٢ - هناك مفضلون : أبو بكر أولاً [بالإجماع] اتفاق أهل السنة .

وهناك من جعل بعده : عمر دين جعل : وبعضهم قدم «على» على عثمان حين (من أهل الكوفة) وبعضهم : فضل العباس .

علماء لنا فيهم أسوة :

نذكر هذا الموقف . . وهو بدروسه القيمة غنى عن التعليق :

قبل ربع قرن من الزمن، كان يتويع على كرسى مكين من كراسى العلم النقي الصافي عند المئذنة الشمالية من بيت الله الحرام بمكة المكرمة، شيخ هرم، جار عليه الزمان كل الزمان، ونال منه الكبر مبلغه، واعتدى على ظهره نواثب الدهر، غير أن ذاكرته ظلت مستودعاً أميناً وسكناً أميناً لعشرات المتون في النحو والصرف واللغة، بل إن قريحته الحادة أهبطت جميع محاولات سطو الهرم وعدوان الشيخوخة على تلك المتون في ذاكرته، وخاصة ألفية ابن مالك ! وإني أشهد الله - والشهادة للتاريخ .

بأن شيخنا لم يتخلف يوماً قط عن درسه الذي كان يلقيه على طلبة العلم بعد كل صلاة مغرب ! وكم كان حرصه شديداً على حماية السنة الطلبة الذين كانوا يؤمون درسه المليء بالحوية والفاعلية التي كانت تطرد السنة، وتحمي الجفون كل الجفون من تسلط النوم وجنوده ! بل كان الطلبة يتنافسون في الجلوس بالقرب من شيخنا رغبة في سماع صوته المرهف، بيد أن أسلوب شيخنا العنيف ومنهجه القاسي في معاقبة من يلحن في إعراب بيت أو نثر أو شاهد، كان ذلك الأسلوب وذاك المنهج مصدر نفور وهرب لأولئك الفتية الذين يأتون إلى درسه للمرة الأولى !

فكم من وجوه جديدة أتت إلى درس شيخنا، ثم ذهبت ولم تعد! بل كم من فتية أعجبوا بقوة ذاكرة شيخنا ووقدتها وخاصة طريقته الفذة في قراءة أبيات ألفية ابن مالك !

جير، لم يكن شيخنا يخطئ أبداً في استذكار بيت من أبيات الألفية، ولكنه كم كان يخطئ في أسمائنا على الرغم من أننا كنا نلتقي به يومياً عدا يومي الخميس والجمعة، وكنا نعد هذين اليومين من أكثر الأيام وحشة، إذ إننا كنا نحرم فيهما من لقيا شيخنا الذي أحبيناه وأحببنا درسه كل الحب !

إيه، ما أشد تعلق شيخنا بابن مالك - رحمهما الله ! بل ما أشد غرامه وولعه بكتاب سيبويه، ولكم كان أسفه وحزنه شديدين ومرين إذا تلعثم منا أحد في استذكار

بيت لابن مالك !

وقد كانت طريقة الشيخ في درسه أن يقرأ على مسمعه أحد طلابه شرح ابن عقيل ، وكان في مجلس الشيخ رجل يماني مرح يقال له الشيخ يحيى ، كانت مخارج الحروف عنده متميزة وراقية ، فكان الشيخ يعجب بقراءته ، غير أن فهمه لدرس الشيخ كان محدوداً جداً ، بل كان كثير اللحن عندما يطلب منه الشيخ أن يعرب بيتاً أو نثراً ، كما كان في مجلس الشيخ شاب مصري ضخم الجثة ، وكث اللحية ، يقال له مصطفى ، كان ملازماً للشيخ ومرافقاً له ، وكان كذلك كثير الخطأ عند إعراب بيت أو نثر ! وكان منهج الشيخ إذا أخطأ أحد في إعراب بيت أو نثر ، يقول له بملء فيه وبصوت عال جد عال : رح واشرب زمزم !

ولم يكن يمضي يوم في درس الشيخ إلا ويكرر هذه العبارة ، بل كان الشيخ يمسك برأسه عندما يلحن أحد من طلابه ، ويظهر على ملامحه كأن ذلك الطالب ارتكب جريمة نكراء ! إنها جريمة اللحن ما أشدها جريمة ، وما أفجعه في نظر شيخنا ! لقد كان شيخنا مؤمناً إيماناً حقيقياً بأن ماء زمزم يشفي المرء من اللحن ، ويقوم لسانه ، ويحمي من ترسبات اللحن وآفاته ، بل كان الشيخ يؤمن في قرارة نفسه أن العلاج الأمثل للحن يكمن في أن يبدأ الدارس بشرب ماء زمزم قبل الدرس ، وعند الدرس ، وبعد الدرس ، يا له من علاج رباني !

حقاً ، فلئن تعددت مشارب الناس ومآربهم من شرب زمزم ، فإن شيخنا كان يرى في ماء زمزم شفاء للحن ، وشفاء للأخطاء الفاحشة في اللغة ، وعلاجاً ناجعاً لانحراف اللسان عند النطق بلغة الضاد !

وهكذا مضت الأيام ، وتوالت السنون ، وانقضت الأعوام ، وامتدت يد المنون إلى روح الشيخ قبل عقد من الزمن ، فألحقته بربه - رحمه الله - وتفرقنا - نحن الطلبة - شذر مذر ، وجارت علينا الأيام أيما جور ، حيث لم نعد نعرف عن بعضنا شيئاً ، بل لم يبق لنا من ذكريات تلك الأيام الخوالي سوى عبارات شيخنا الحزينة التي ترن في الأذن كلما تسلل لحن إلى ألسنتنا ، أو اعتدى متحدث على فاعل فنصبه ، أو على

مفعول فرفعه، أو على مجرور فجزمه : رح واشرب زمزم !

كان شيخنا بشهادة التاريخ سيبويه عصره، وابن مالك زمانه، وابن هشام جيله، رحم الله الشيخ محمد الحبيب تبكتي، رحمه واسعة وأسكنه فسيح جنانه، وجزاه عنا وعن لغة الضاد خير الجزاء !

وليس فى استطاعة بلاغة التصوير أو قوة التعبير أن تنقل الى الناس هذه الآلام كما يحس بها الإنسان !

كما أن تلاطم الأمواج لا يحكى ما فى جوف البحر من صخب وهياج !!
وليت شعرى ..

ولو كشف لنا الغطاء قبل أن نولد ورأينا ما سنلاقيه فى هذه الدنيا من عذاب وشحن .. لفضلنا أن نستمر بين طيات العدم .. حيث الراحة والسكون .. على أن نحيا فى هذه الأرض .. بين سكير الهموم وأكدار الزمان !!
ولكن لا حيلة فى الأمر .. ولا بد أن تدفع الضريبة من دمنا .. ومالنا .. وأعصابنا .. على الأقل .. كلما ودعنا حبيباً إلى مثواه الأخير .. ويا لتصاريف القدر !!

يجلس معك صديقك .. تتجاذبان معا أطراف الحديث .. وتنفرج الأسارير عن ابتسامة الأمل ..

وما هى إلا لحظات .. حتى تتحرك يد القدر .. فيساقط أحدكما كالثمرة لقمة سائغة فى فم الموت !!

ثم تجلس وحدك .. سابحاً فى أحلام اليقظة .. تتمثل أيامك الخوالى مع صديقك الراحل .. غير أن ابتسامتك مع صديقك الراحل .. تتحول فى ذكراه إلى دمعة ..

وحديثك معه سينقلب حيثئذ إلى نحيب وبكاء .. ومرحك سيفقد آهات تشق الحناجر شقا ..

وهو نفس موقفى وأنا أذكر أخى الذى رحل !!
لقد درجت معه على دروب هذا البلد سنين عددا ..
كنا صبيانا نرتل القرآن سويا .. ثم نذهب إلى الحقل لنستمع بالحياة ..
ونستذكر دروسنا فى ظلال الأشجار ..
وينقضى اليوم .. وتعود الشمس إلى مغربها .. فنعود نحن إلى ديارنا ..
ثم نفترق .. وفراقنا حينئذ كعقارب الساعة كما يقول «لا مرتين» .. تدور
وتدور .. عقرب يسبق الآخر فى المسير .. والآخر ينتظر لقاءه .. بلا نواح .. وبلا
أنين ..

أما اليوم ..
فأنا أنتظر محمدا .. ولكنه لا يعود ..
ويتلفت القرآن باحثا عن قارئه المؤمن فلا يجده ..
وتتلفت الشجرة التى أظلمت عليها تراه فلا تحس لأنفاسه ديبا ..
وينصت النهر الجارى إلى صوت محمد فلا يسمع همسا !!
سكن الصوت .. وهذأت الحركة .. وتوقفت الأنفاس .. وانتهت قصة
الحياة !!

أستغفر الله !!
هل انتهت قصة حياة محمد محمود ؟ .. لا .. إننى أتخيله الآن من وراء حجب
الغيب وهو ينظر إلينا من برجه العالى ساخرا :
فيم اجتماعكمو هذا ؟؟ لتأيننى ؟؟
أنتم أحق بتأين الورى دونى !!
أنا هنا فى الرحبات الوسيعة فى جثة الرضوان .. وأنتم لا زلتم سجناء هذا
الجسد المسعور ..

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

رحمك الله يا محمد ..

لقد كنت أحد الرجال القلائل .. الذين رأوا المروءة .. بستانا من غير
حارس .. وطائرا بلا عش .. وزهرة بلا ربح ...

فكنت حارسها الذى رعاها .. وعشها الذى مد عليها رواقه .. وريحها الذى
دخل كل قلب .. وملك كل عقل ..

وكان غيرك يدعو إلى الفضيلة .. وهو عدو لها .. يدعو إلى الصدق .. وهو
كذاب ..

ويشجع على الأمانة وهو خائن ..

ويمدح البذل .. وهو بخيل .. تماما كالمثدنة مستقيم الظاهر .. معوج الباطن !!
ولكنك فى دعوتك إلى الفضيلة .. كنت مثالا حيا .. يطبق مبادئها فى دنيا
الناس عمليا .. ومن أجل ذلك لا زلت تحيا بيننا ... وإن توارى عنا جسدك ..
وذلك .. لأن ما يخلفه الإنسان من ثمرات خلقية أبقى على الزمان من كل
شئ ..

يذهب المال .. ويزول الجاه .. ويسقط السلطان ..

وتبقى الذكرى الطيبة فى فم الحياة عمرا ثانيا .. يحيا بها الإنسان وهو ثاو بين
أطباق الثرى !!

وإذا كنت لم تعش على ظهر الأرض عشرات السنين .. فعزاؤنا أنك عشت حياة
عريضة ..

إنها فعلا قصيرة الأمد .. بيد أنها مليئة بالمكرمات .. والمآثر ..

وكثيرون غيرك عاشوا مئات السنين فكانت حياتهم طويلة .. ولكنها حياة
ضيقة .. ليس فيها من معانى الإنسانية ما يضىء عليها سمة الخلود ..

إننى أستعرض أمامى الآن .. إخوانك وصحابك .. وأسألهم واحدا واحدا ..

هل أساء محمد إليكم يوما ؟

وأكد أسمع الجواب : لا ..

بل إنه عاش فينا كشجرة الصندل .. تعطر الفأس التي تريد قطعها ..

أو كشجرة جوز الهند .. تقذفها بالحجر .. فتقذفك بالثمر !!

سلام عليك يا أخى يا محمد .. سلام عليك وعلى أخيك سليمان .. لقد نزل

عليك منذ قريب ضيفا .. ولا شك أنك التقيت به .. واستعدت معه ذكريات

الماضى ..

فعليكم السلام جميعا .. ورضوان من الله أكبر ..

فتم يا محمد مطمئنا .. ونم يا سليمان آمنا ..

فلا زلنا على العهد أوفياء .. جنودا مخلصين .. لتثبيت دعائم الفضيلة التي

عشتم بها واستشهدتم عليها ..

وإذا كان منجل الفلاح القاسى .. لم يمنع جذور البرسيم من النمو مرة

أخرى .. وإذا كانت أشعة الشمس لا تمنع قطرات الندى من أن تبرق .. فإن الموت

لا يمكن أن ينسينا أحبابنا وصحابنا أبدا ..

وسلام عليك يوم ولدت .. ويوم استشهدت .. ويوم تبعث حيا ..



الإسلام اليوم :

سؤال يفرض نفسه :

ما هو موقف المسلم من الإسلام ؟

يجيب العلماء بما ملخصه :

قبل الإجابة عن هذا السؤال .. لابد من معرفة موقف المسلم من الإسلام ..

فى الأمس الدابر .. لأن ما نحن فيه الآن .. إنما هو حصيلة ما زرعناه بالأمس ..

وإذن.. فما هي الجذور التاريخية ؟

ثم .. ما هي ملامح المستقبل المشتق من هذا الماضي السحيق ؟

لقد شق الإسلام طريقه عبر أربع مراحل :

المرحلة الأولى :

دعا النبي ﷺ الناس : بلسانه .. ثم بعمله فكان مثالا للإنسان الكامل . والداعية

المثالي ، الذي يقول ما يفعل :

وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل :

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ

أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١ ، ١٦٢] وكان معه من البشر صفوة الصفوة

الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ..

اتبعوه في التزام صارم بكل ما جاء به من عند الله :

١ - أفرغوا حياتهم في حقائق الشرع .

٢ - بل تحدوا كل قوى الأرض جميعا .

٣ - بل حاربوا هذه القوى الفاجرة .. مضحين في سبيل الإسلام بأموالهم

وأنفسهم .. إلى الحد الذي كانت عقيدة الإسلام أغلى حتى من الولد والوالد ..

وكان الولد يقرأ من آيات القرآن الكريم لعن والده .. فينسى لحمه الدم ولا يكون

ولاؤه إلا للقرآن وقرأ في ذلك قوله عز وجل في «الوليد» .. وكيف كان ولده خالد

يقرأها برضا وقبول :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدْتُ

لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا (١٧) إِنَّهُ

فَكَرَّ وَقَدَّرَ (١٨) فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ [المدرثر : ١١ - ١٩] وبهذه الصفوة الخالصة المخلصة

أسس بهم ﷺ دولة في المدينة :

من ملامحها :

- ١ - دولة فى حجم مدينة صغيرة .
- ٢ - لا يتجاوز تعدادها سبعة آلاف نسمة .
- ٣ - يراها الناس : جزيرة صغيرة .. فى بحر متلاطمهم من الجاهلية العانية .
- ٤ - ومع ذلك : طبق فيها الإسلام عمليا .
- ٥ - ومع أن مساحتها - كما يقول العلماء - لم تكن تتجاوز بضعة أميال ..
- ٦ - إلا أنها سيطرت وفى ثمان سنوات .. استولت على مليون ميل مربع .
- ٧ - ولم يكن ذلك الاستيلاء بالسيف .. كما يزعم بعض المستشرقين .. بدليل ما أبيتته الإحصائيات الدقيقة من أن قتلى الطرفين فى كل الغزوات لم يتجاوز ألفا وأربعمائة نفس تقريبا ..

[فأين هذا العدد الضيق مقارنا بضحايا الحروب الحديثة والتي كان القتلى فيها بالملايين] لقد صحا العالم الغافل الذاهل .. فرأى ما لم يكن يرى .. وسمع ما لم يكن يسمع ..

رأى ناسا من لحم ودم مثلهم .. ومع ذلك يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة هم رأوا دولة وفيّة : ترد الجزية لأعدائها إذا عجزت عن حمايتهم ..

ثم سمعت رئيس الدولة يقول :

” أنا ابن امرأة من قريش .. كانت تأكل القديد فكان مثلاً أعلى فى التواضع :

إن التواضع من خصال المتقى

وبه التقى إلى المعالى يرتقى

ثم اتسعت الدولة .. بفضل قائدها الذى ربه جنده على الولاء للحق وحده .. واطراح معانى التشفى والانتقام :

لقد كانوا كما وصفهم ربه :

﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴿ [آل عمران: ١٩١]

يذكرون الله : شخنا للقلب

ويتفكرون : شخنا للعقل

ومن ثم لم تكن لهم نهمة إلى نساء المقهورين حين يدخلون البلاد فاتحين :

فقد كانت نساء العدو تطل من الشرفات بالملابس الزاهية المغرية . .

فلم ينبهروا . . بل لم ينظروا . . ولم يفعلوا ما كان يفعله الأعداء ، حين

يتتهكون الأعراض .

وإذ فإنها لم تكن فى حاجة إلى إلحاح فى الدعوة من حيث كان الفاتحون يدعون

بأعمالهم . . فيفتحون القلوب . . قبل أن يفتحوا البلاد . .

ولهذا السبب بقيت آثارهم . . التى لا تذهب مع الأيام . .

وكل ما تشاهده اليوم من تقدم . . فإنه قبس من صفاتها . وأثر من آثارها .

المرحلة الثانية :

١ - انتشر الإسلام فى كل فجاج الأرض .

٢ - دخله كل من هب ودب .

٣ - ومن معانى ذلك :

نقص عدد المخلصين من المرحلة الاولى .

٤ - تعذر تربية هذا العدد الضخم .

٥ - تراجعت أمة الإسلام .

الأسباب :

١ - انقسمت الأمة على نفسها :

السياسيون فى ناحية ، ورجال الفكر والدين فى ناحية

- ٢ - وكان ذلك فتنة . .
- ٣ - لاسيما بعد تسلط السياسة على الحكم والدين .
- ٤ - وقد رفض العلماء ذلك .
- ٥ - واتسعت شقة الخلاف بين طرفي الأمة .
- ٦ - تخلى الحكام عن الدعوة . . إلى :
- الحكم والضرائب واللذائذ .
- ٧ - توقف المد الإسلامي .
- ٨ - تفرد العلماء بالدعوة قولاً وعملاً . . ولم يساعدهم الحكام .
- ٩ - أهل الإحسان «أوقفوا» أملاكهم . .
- ولكن !

ولكن الرجل كان يدخل في الإسلام . . فماذا يحدث ؟
يتغير اسمه فقط ليكون اسماً إسلامياً . . مع تعلم بعض الأحكام ، لكنه لم يتمكن من صوغ حياته كلها طبق مفاهيم الإسلام . . بسبب جور الحكام .
وكانوا معرضين للردة !

- ١٠ - ازدهرت العصبية التي عجلت بانهيار بني أمية .
- ١١ - استغل الملوك هذه العصبية إلى الحد الذي حمل «العباسيين» على الاستعانة بالفرس على بني أمية . . تدعيماً لحكمهم .
- ١٢ - تحكمت «الأناية» فكان الولاء للنفس . وليس للمبادئ وبيعت الضمائر في الأسواق .

المرحلة الثالثة :

وهي المرحلة التي هجم فيها علينا : الاستعمار . .
والذي كان من آثاره :

١ - تحكيم منهجه فى التربية . فكان من آثار ذلك .. جيل يدين بهذا المنهج ..
وهو الجيل الذى يتبوأ أرقى المناصب .. فكان القرار قراره ..
والدليل هو : مركز مدرسى الإنجليزى .. والذى كان أهم من مدرسى
العربى ..

وفى ضوء هذه الحماية الاستعمارية حدث ما يلى :
قامت حركات أطلقت على نفسها : حركة التحرير .. أو حركة التنوير ..
ولقد كان من مكرهم أن يرفعوا شعار الإسلام تمسحاً به .. وخداعاً للناس ..
حتى إن .. «مصطفى كامل» لما غدا اليونان تركيا .. حمل إليهم المصحف مبيناً أن
هذه معركته ؟!

يفعل هذا .. مع أنه مناوئ بقيم هذا المصحف ؟!

المرحلة الرابعة :

١ - اختيار قادة الأمم ممن يدينون للاستعمار ..
والذين كانوا يضربون الإسلام الذى قام باسمه زورا وبهتانا .
ولقد رق مكر الاستعمار حتى إنه كان يختار من الدول أنجب شبابها ليقوم
بإعداده إعداداً خاصاً .. حتى إذا نُصّب بعد ذلك كان ولاؤه له .

٢ - كان هناك طبقة من العلماء المخلصين ..

ولكن الشعب لم يكن يأمنهم على تسيير دفة الحكم .

وتردد الناس يومئذ بين :

حكام أهل خبرة .. ولكن بلادين ، وعلماء أهل دين .. ولكن بلا خبرة !

وهو المعنى الذى أعلنه عمر رضي الله عنه بقوله :

[اللهم إنى أشكو إليك قوة الفاجر وعجز الثقة]

حاشية

ومع هذا .. فهناك حقيقة يجب ألا تغيب عنا وهي : أن كل إنسان مهما كان مغرقا في العصيان إلا ويتمنى عود المرحلة الأولى ..

وإذن .. فالرغبة في الإصلاح موجودة .. بل وقوية .. ولكن أين السبيل ؟
إجمالا نقول :

لو خضعنا لمن يملك الكون سبحانه .. لخضع لنا هذا الكون ..
وتفضيلا لابد من دعاة .. يتسلحون بهذه الخصائص
في الدعوة :

في صحيح البخارى :

أن رسول الله ﷺ حادى الإبل بالترفق : فقال :

« رفقاً بالقوارير »

لم يقل بالنساء :

لأن «القوارير» تشخص طبيعة الرقة .. والضعف .. فتحميل على الالتزام .
وفى فتح مكة ساء عمر ما أنشده «حسان» من شعر فى موقف الجدل . فقال ﷺ :
«دعوه فإنه أشد عليهم من النبيل» «سيرة ابن هشام» .

يقول عز وجل :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى ﴾ [الإسراء : ٣٢]

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ [الإسراء : ٣٤]

أما فى القتل فلم يقل ولا تقربوا

وإنما :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا ﴾

لأن الوازع قوى وهو القصاص

أما فى الأولين :

فيمكن ارتكاب الجريمة بلا وازع

فمنعوا من الاقتراب

لأن مجرد الوجود فى الحمى يوشك أن يقع ،

الهروب من ماضيك .. فلسوف يكون من ورائك دائما .

أما أنا فقير العين :

بما أتفق على الفقراء إطعاما لهم .

أما أنت .. فتبذل مالك على مترفين :

بدل أن تشتري لهم خبزا .. تشتري تفاحا .

الصوت :

الذين اشترطوا جهارة الصوت .. هم الذين اشترطوا حلاوة جرسه .

المناصب

يقول ﷺ :

« من ولى رجلا وهو يعلم أن هناك من هو أقدر منه .. فقد برئت منه ذمة الله » .

ترى : هل نفتبس هذا الدرس من سيرته ﷺ لنستريح ونريح ؟؟

أم لا نزال بحاجة إلى كثير من النكسات حتى نعود إلى الحق المبين ؟

دخل رجلا من أبناء عم « أبى موسى الأشعرى » ؓ فقال أحدهما :

يا رسول الله : أمرنا على بعض ما ولاك الله وقال الآخر مثل ذلك : فقال ﷺ :

« لا نولى هذا أحدا :

سأله ٥

ولا أحدا حرص عليه » .

هكذا وبصراحة .. ولم يشفع لهما أنهما ابنا عم رمز من رموز الدولة : أبى

موسى الأشعري القائد العسكرى . . والرائد السياسى .

دعوة :

بنى الرجل الغنى مسجداً . .

ثم قال للإمام :

هل قبل الله ذلك منى ؟

فقال له الإمام :

أمهلنى للغد

فلما جاء الغد . . لفت نظره للراعى المأجور :

فلقد كان - وعند الغروب - كان يوجه كل مجموعة من الغنم إلى صاحبها .

ومعنى ذلك :

أن تسأل نفسك : ماذا قصدت بعملى هل كان فى سبيل الله ؟

هل نويت به وجه الله تعالى وحده . . فعاد إلى «صاحب» أم كان رثاء

الناس؟؟؟!

لما عفا ﷺ عن «حاطب» رضى الله عنه :

نسى الصحابة ما حدث . . ولم يلاحقوه بما فعل . .

وإنما كانوا يقولوا عنه :

بدرى . . لا نقول عنه إلا خيرا

وهكذا بقيت المواهب ولم يقتلوا بالشماتة أو التعت

فبقيت قوة مدخرة للإسلام

وليتنا الآن نفهم هذا الدرس . . فلا نعاتب ولا نغاضب . . وإنما : التغافر .

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٧]

أحسن إليك ربك كرما منه تعالى وتفضلا .. فماذا حدث !؟

لكنك أنت بنفسك . ونسيت كرمه سبحانه وإحسانه فعصيته ٥ إذا رأيت فعلك

السيئ حسنا .. أو أنما الطفل المدلل الذي سينعفى عنه عدا ..

ولقد نسيت أنه كريم بمعنى : لقد غرك إحسانه فتناسيت إعفائه ..

ونسيت أيضا أن [التعبير «بالرب» مع دلالاته على الإحسان يدل على الانتقام عند

الإيمان في الإجماع وإذا ظهر لك معنى اللطف : ففي الباطن جيروت وقهر إنه

يمهل .. ولا يهمل .. ولا يمكن للكمال المطلق أن يسوى بين المحسن والسيئ ..

والمقام لشكر، عز وجل ففرازا من عقابه : لأن من صفات الكريم أنه عزيز فهو : مع

شدة حلمه .. شديد العقاب ..

مع ما كان ينبغى من التخلق بالحياء من المنعم المتفضل ..

وتذكر ما يقال في دنيانا :

من كرم الرجل : سوء أدب غلمانه .

فهو : إذا قدر عفا . وإذا وعد وفى ، ولا يبالي كم أعطى ٥ ولا لمن أعطى .

اعتدلت النسب :

فسواك

فاعتدل مزاجك

وكان عليك أن تفهم : أن القادر على التسوية قادر على التشويه .

كلا .. ردع عن الغرور .. فكل أقوالكم وأعمالكم مسجلة .

صفح :

أعرضت عن عتابه وتوبيخه

[وهو أبلغ من العفو . وقد يعفو الإنسان - ولا يصفح] [ترك عقوبة المستحق] .

العفو :

المحو . والإقحاء .

ومن البلاء :

ما لا أثر لأحد فيها

غفر : الستر : الصيانه من عسى العذاب

غافر الذنب :

تأميل الراجين . وتأنيس المذنبين

أهمية القدوة

كثيرة هي الخطب التي سمعتها تمجد قيمة الحرية . وجوهر الحق . .

ولكن موقفا واحدا يجسدهما أشد تأثيرا . .

ومن معاناة الداعية توقع العناد والجمود . . على ما قيل :

تقول «الإبرة» «للمصفاه» إني فيك لثقبا ! ؟

ولكن بأي شيء نواجه هذا العناد . . وذلك الجحود ؟

بالعقل :

إن العقول الكبيرة : تفكر .

لكن العقول الصغيرة : تناقش !

غير بمعنى : سوى .

والجمع : أغيار

والأصل فيها : أنها صفة

والاستثناء عارض

فإن وصفت بها . أتبعته إعراب ما قبلها وإن استثنيت بها : أعربت بالاعراب

الذى يجب للاسم الواقع بعد إلا .

قال الغراء :

بعض بنى أسد . وقضاعة :

ينصبون غيرا إذا كان فى معنى «إلا»

سواء تم الكلام بعد أم لا . فيقولون :

ما جاءنى غيرك .

وما جاء فى أحد غيرك .

وقد يكون غير بمعنى «لا»

وعندئذ تنصب على الحال : مثل :

﴿ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ [البقرة: ١٧٣] ﴿ غَيْرَ نَاطِرِينَ إِنَاهُ ﴾ [الأحزاب:

٥٣].

وقوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ [المائدة : ١] .

من بلاغة القرآن

فى كتابات المعاصرين

[وفى ظلال المراعاة لمثل هذه الملائمة بين الكلمات فى الآيات القرآنية، قال الشريف الرضى فى عرض الصورة البلاغية فى آية سورة «البقرة» ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ :

«المعنى أنهم استبدلوا الهدى بالرشاد، والكفر بالإيمان، فخسرت صفقتهم، ولم تربح تجارتهم، وإنما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم التجارة لما جاء فى أول الكلام بلفظ : «اشترُوا» تأليفا لجواهر النظام، وملاحمة بين أعضاء الكلام» (١).

كما قال أيضا فى عرض الصورة البلاغية بقوله تعالى : ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّةِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف : ٣٣] : (الظلم هنا ليس على أصله فى اللغة، ولا على عرفه فى الشريعة، لأنه فى اللغة اسم لوضع الشيء فى غير موضعه، وفى الشريعة، اسم للضرر المفعول).

والمراد بقوله تعالى هنا : ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أى : «لم تمنع منه شيئا» وإنما حسن أنى يعبر عن هذا المعنى باسم الظلم من حيث كان ثمر تلك الجنة التى هى البستان، كالمستحق لما لكها، فإذا أخذه حقه على كماله وغمامه حسن يقال : أنها لم تظلم منه شيئا، أى لم تمنع منه مستحقا، فتكون فى حكم الظالم إذا أضرت بمالكها فى نقصان زرعها، واختلاف ثمارها، ومما يقوى ذلك، قوله سبحانه : ﴿آتَتْ أَكْلَهَا﴾ فلها جاء بلفظ «الإيتاء» والإعطاء، حسن أن يجيء بلفظ الظلم ومعناه هنا : المنع، فكأنه تعالى قال : «اعطيت ما استحق عليها ولم تمنع منه شيئا».

ولم يفت علماؤنا القدامى فى دراستهم القرآنية، أن يعرضوا ما تيسر من نماذج الموازنة بين كلمة وكلمة، أو بين جملة وجملة.

(١) انظر «تلخيص البيان فى مجازات القرآن» للشريف الرضى ص ١١٤.

فى سياق كلام الله . وسياق كلام البشر نثراً أو شعراً - والله المثل الأعلى - :
١ - فضياء الدين بن الاثير، فى الجزء الاول من «المثل السائر»، وازن بين كلمة يؤذى، فى قول المتننى :

تلذ له المروءة وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام
وبين هذه الكلمة نفسها فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ
لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾
[الأحزاب : ٥٣]

كما وازن بين مورد كلمة «القمل» فى قول الفرزدق :
من عزة احتجزت كليب عنده زربا كأنهم لديه القمل
وبين مورد هذه الكلمة نفسها ، فى قوله تعالى :
﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفْصَلَاتٍ ﴾
[الأعراف : ١٣٣] .

٢ - وأبو الحسن الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ فى كتابه (النكت فى إعجاز القرآن)
وازن بين المزاوجة فى قول عمرو بن كلثوم الشاعر الجاهلى :
الا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
وبين المزاوجة فى الآيتين الكريميتين : ﴿ وَمَكْرُوهٌ وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾
[آل عمران : ٥٤]

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢] .
٣ - وابن سنان الخفاجى فى (سر الفصاحة) وازن بين المثل العربى المشهور :
(القتل أنفى للقتل) والآية القرآنية الكريمة ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩]
فانتبهت موازنته كما انتهت موازنة الرمانى (١) وأبى هلال العسكري بينهما إلى أن
الآية القرآنية المعجزة :

(١) انظر «النكت فى إعجاز القرآن، للرمانى ص ٧ وما بعدها ثم «الصناعتين» للعسكرى ص ١٦٨ .

(١) أكثر فائدة .

(٢) وأوجز لفظاً .

(٣) وأسلم من التكرار .

(٤) وأحسن تأليفاً وبياناً . . !

وعفوا ومعدرة يارب العالمين، فما جمعنا في هذا المقال بين ما تيسر من كلام الله، ثم ما تيسر من كلام البشر، إلا ونحن نردد مع الإمام أبي بكر الباقلاني المتوفى عام ٤٠٤ هـ في كتابه «إعجاز القرآن» قوله ما نصه : (انظر بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل في ذلك، فسيق لك الفصل بين كلام الناس وكلام رب العالمين) و«لا يستويا في مثلاً» .

ولا يستوى وحى من الله منزل وقافية في العالمين شرود

وما أصدق وحى السماء ، فى سورة الإسراء :

﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] ؟

الغزالي حرب .

١ - منها قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ [آل عمران : ٩٧] يعنى

أنه حق واجب فى رقاب الناس، لا ينفكون عن أدائه والخروج من عهده .

٢ - ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل عنه : ﴿ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ وفيه ضربان

من التوكيد : أحدهما : أن الإبدال تشية وتكرير، والثانى : أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال ، إبراد له فى صورتين مختلفتين .

٣ - ومنها قوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ مكان (ومن لم يحج) (تغليظاً على تارك الحج).

٤ - ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان .

٥ - ومنها قوله : ﴿ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

ولم يقل : (عنه) وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه ببرهان ، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء لا محالة ، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل ، فكانى أدل على عظم السخط الذى وقع عبارة عنه !!

﴿ فَوَقَّعَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك : ١٩] متسائلا عن السر فى التعبير بالوصف فى ﴿ صَافَّاتٍ ﴾ وبالمضارع فى ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ ثم مجيبا بقوله : لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة ، لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء ، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها ، أما القبض فطاوى على البسط للاستظهار به على التحرك فجاء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنها صافات ، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح .

ووقف الزمخشري أيضا أمام آية من سورة «الحجرات» : ﴿ وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] ، قائلا : إن هذه الآية تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفطع وجه وأفحشه وفى مبالغات ، شتى منها :

- (١) الاستفهام الذى معناه الإنكار .
- (٢) ومنها جعله ما هو فى الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة .
- (٣) ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم .
- (٤) ومنها الإشعار بأن أحدا من الأخوين لا يحب ذلك .
- (٥) ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الاغتصاب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخا .

- (٦) ومنها أنه لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعله ميتا . .
- وفى مقام إثبات التوحيد لله عز وجل وهو جوهر الإسلام ولبابه - تبدأ الآيات القرآنية الكريمة الآتية : بعرض دعوى الشرك ، ثم تعقب عليها بأبلغ وأروع وأكد أسلوب يوحى بالخطر فى كل كلمة من كلماته المشعة المتفجرة :

«إِذَا» «يَتَفَطَّرْنَ» «تَنْشَقُ» «تَخْرُ» «هَذَا» ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم : ٨٨ - ٩١] .

وفى سبيل القضاء المبرم على هذه الدعوى الاشتراكية الخطيرة، يأتي القرآن الكريم فيما يأتي - بآيتين اثنتين، نفيضان بشمانيه أساليب استفهامية متوالية جمعت بين التقرير الملزم ، والإنكار المفحم، ﴿قُلْ﴾ ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ مَنْ يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ؟ وَيَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ: اللَّهُ، فَقُلْ: أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟

وإذا كانت هذه الآية الكريمة، أتت بفعلين مضارعين متوالين فى قوله : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ فإن الآية الأخرى من سورة «الأنعام»، قد أتت فى التعبير عن هذا المعنى نفسه باسم الفاعل وهو «مخرج»
- بعد مضارعه - وهو «يخرج» - قائلة : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام : ٩٥] .

فلماذا كانت هذه المغايرة فى التعبير ؟

أجاب عن ذلك صاحب «بديع القرآن» بما خلاصته أن مجيء اسم الفاعل فى سورة «الأنعام» - وما جاء فى غيرها فى هذا المقام - هو الملائم لسياق الكلام الذى يقتضى فى هذه الآية من هذه الصورة، مجاورة اسم الفاعل «مخرج» لسنظيره اسم الفاعل «فالق الحب» ومعلوم أن اسم الفاعل المضاف يدل على المضى، والفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال دون المضى، وهذه الآية مسوقة للتمدح بالقدرة الربانية المطلقة، واسم الفاعل هنا أنسب .

الكلام على «بعد»

عبد الله حميد غالب

أخبرني أستاذي الفاضل ومن له الفضل بعد الله عليّ في دراستي للحصول على مرحلة الماجستير - د/ صالح جمال بدوي - حفظه الله - أن بعضهم - يرى أن استعمال (وبعد) خطأ وأنه لا بد من الإتيان بأما ولما رجعت إلى كتب السلف والخلف وجدت أن هذا الأسلوب كثير الاستعمال فأحببت أن أنقل ما قيل فيه وخاصة ما علق على شرح قطر الندى لابن هشام رحمه الله .

١ - «وبعد» أتى بها تأسيساً به ﷺ ، فإنه كان يأتي بها في خطبه ، وهى هنا مبنية على الضمّ لحذف المضاف إليه ونية معناه ، أى بعدما تقدم من البسملة والحمدلة وغيرهما ، وأصلها مهما يكن من شيء بعد فحذفت مهما ويكن وأقيمت أمّا مقامها ، ثم حذفت أمّا وعوضت عنها الواو ، فهى نائبة عن أمّا المحذوفة تخفيفاً لكثرة الاستعمال ، واختصت الواو من بين حروف العطف بالنيابة عن أمّا لأنها أم الباب ولأنها قد تستعمل للاستئناف كأما .

(حاشية العلامة حسن العطار على شرح الأزهرية فى علم العربية للشيخ خالد الأزهرى ص) .

٢ - قوله «وبعد» أصلها أمّا بعد بدليل لزوم الفاء فى خبرها لتضمن أمّا معنى الشرط ، وإنما لزم الفاء بعدها ولم تلزم فى بقية أدوات الشرط ، لأنها لما ضعفت بالنيابة تقوت بذلك ، والأصل مهما يكن من شيء بعد ، والواو نائبة عن أمّا وبها ألغز بعضهم فى قوله :

وما واو لها شرطٌ يليه جوابٌ قرئ بالفاء حتماً

وأجاب بعضهم :

هى الواو التى قرئت ببعد وأما أصلها والأصلُ مهما

(حاشية العلامة الفاضل أحمد بن أحمد السجاي على شرح قطر الندى لابن هشام ص) .

٣ - قوله «أما بعد» الإتيان بها أولى من «وبعد» لأنها الواقعة منه ﷺ ، ومن يأتي بالواو ويرى أن المدار على «بعد» فيختصر ، وهي في بعض النسخ أيضاً ، وإن أردت الكلام النفيس في «بعد» فعليك بما كتبناه على الأزهرية .

(حاشية العلامة الشيخ محمد بن محمد بن أحمد المالكي الشهير بالأمير الكبير ص) .

٤ - وبعضهم يحذف أمّا ويأتي بالواو مكانها فيقول «وبعد» فتكون الواو نائبة عن أمّا وتكون الفاء في جواب الواو .

واختلف في أول من نطق بها على ثمانية أقوال نظم بعضهم منها خمسة في قوله:

جرى الخلف أمّا بعد من كان بادياً بها خمس أقوال وداود أقرب

وكانت له فصل الخطاب وبعده فقس فسحبان فكعب فيعرب

وقيل يعقوب وقيل أيوب ، وقيل آدم وهو أضعفها ، وجمع بين هذه الأقوال بأن كلاً أول من نطق بها بالنسبة لقبيلته فلا تعارض .

(حاشية لقط الدرر بشرح متن نخبة الفكر تأليف عبد الله بن حسين خاطر السمين العدوي المالكي الأزهرى ص) .

٥ - وأقول بعد هذا كله ، فكتب علماء السلف والخلف أكثرها مبدوءة بهذا التعبير ، بل بعضهم قد يحذف هذا كله ويستعمل اسم الإشارة كما فعل السيوطي في ألفيته في علم الحديث والنحو فهو يقول بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

وهذه ألفية تحكى الدرر منظومة ضمنتها علم الأثر

ويقول في النحو :

وهذه ألفية فيه حَوَتْ أصوله ونفع طلابِ نوت
وابن مالك فى كثير من منظوماته استعمل «وبعد» يقول فى نظم المقصور
والممدود.

وبعد فإن القصر والمد من يحط
بلفظيهما تستنبه النبهاء
وفى لامية الأفعال يقول :

وبعد فالفعل من يحكم تصرفه
يحز من اللغة الأبواب والسبلا
والشاطبى يقول فى شاطبيته :

وبعد فحبل الله فينا كتابه
فجاهد به حبل العدا متحبلأ
وابن الجزرى استعملها كثيراً فى كتبه يقول فى الطيبة :

وبعد فالإنسان ليس يشرف
إلا بما يحفظه ويعرف
ويقول فى الجزرية :

وبعد إن هذه مقدمة
فيما على قارئه أن يعلمه
فالكلام فى أن استعمل «وبعد» خطأ ، يدل على عدم معرفة بعلم اللغة
والإعراب والله المستعان .

